سياسية، عبر عنها ابن خلدون بقوله : « الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها ـ النفس ـ عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله » ووصفها الغزالي بأنها عوارض تعمي عليهم طرق الصواب وتقضي عليهم بالانخداع ولاحقيقة مع السراب، ومنها الحقد والطموح وحب التميز والميل إلى العيش الرغد وبعض النقائص العقلية والتقليد .

● المبحث الثالث : الكذب واتباع الظن

لقد سبقت الإشارة في المبحث السابق إلى أن إخفاء الحقيقة والتكتم عليها مهما كانت دوافعه هو نوع من الكذب كما بين ابن خلدون، ولكننا هنا سنخص الكذب كسلوك إزاء الحقيقة كما تنص عليه الآيات القرآنية بهذا الحديث .

والحق أن التكتم على الحقيقة،واتباع الظن تشترك كلها في شيء واحد وهو أنها سلوك عقلي يصدر عن دوافع نفسية مرضية مختلفة، فهو إذن مختلف عن الموقف العاطفي من الحق كما بينته الآيات التي تناولناها في بيان موقف القلوب .

● المطلب الأول الكذب :

والآية التي تعرض بصورة صريحة مشكلة الكذب كسلوك للأكثرية واحدة هي قوله تعالى : ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ** ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣] .

الظاهرة التي تشير إليها الآية هنا تتعلق بالفرق بين الوحي القائم على طريق الحق، والوحي القائم على طريق الكذب، وهو طريق الشياطين، فهي تتنزل بوحيها على الأفكة الآثمين الذين يلقون السمع لها وأكثرهم كاذبون، والأكثرية هنا، تنصرف على نوع من الإنس ونوع من الجن والشياطين، فهم جميعا متصفون بالكذب، قال القرطبي « وأكثرهم يرجع إلى الكهنة وقيل الشياطين »[1] ، قال ابن كثير: « يقول تعالى مخاطبا لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ١٤٥

ليس بحق وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو أنه أتاه به رأي من الجن، فنزه الله سبحانه وتعالى جناب رسوله - ﷺ - عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم أمين عظيم وأنه ليس من قبل الشياطين فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ** ﴾ أي أخبركم ﴿ **عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** ﴾[الشعراء: ٢٢١-٢٢٢] أي كذوب في قوله وهو الأفاك ﴿ **أَثِيمٍ** ﴾ وهو الفاجر في أفعاله فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة »[1].

وهكذا تتبين لنا أمور منها :

١ - الكذب على الله شر أنواع الكذب وأخطره، لما يؤدي إليه من ضرر عقدي، قد ينتقل إلى الأجيال بعد الأجيال فيسري الضلال بسبب ذلك في المجتمعات، وما الكهانة إلا صورة من صور هذا الكذب، لم تستطع البشرية أن تتخلص منها حتى في العصر الحديث الذي شهدت فيه تقدما علميا معتبراً وتقدما تكنولوجيا هائلا، بحيث نرى معظم مرشحي الرئاسيات في الغرب يزورون الكهان ليقرؤوا لهم الكف استطلاعا للغيب بزعمهم، تماما كما كان العربي في الجاهلية يصنع، مما يبين عمق تأثير الكذب على الله على عقائد البشرية.

٢ - الكذب عامل مشترك بين شياطين الإنس وشياطين الجن، لأنه قائم على المشاكلة، إذ لا تنزل شياطين الجن إلا على كل أفاك كذوب، شديد الفجور، كثير الفسق، وبمفهوم المخالفة، فإن الشياطين لا تنزل على الصادق الأمين فهي« لا تنزل على مثل محمد ﷺ في أمانته وصدقه وصلاح منهجه، إنما تنزل على كل كذاب آثم ضال من الكهان الذين يتلقون إيحاءات الشياطين ويذيعونها مع التضخيم والتهويل..وأكثرهم كاذبون، والتصديق بهم جري وراء الأوهام والأكاذيب »[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣ / ٣٥٢-٣٥٣ (٢) في ظلال القرآن : ٥ / ٢٦٢٠

٣ ـ الكذبة أصحاب أغراض ومصالح دنيوية، ومن ثم فهم لا يدعون إلى هدى ولا يأمرون بتقوى ولا يقودون إلى إيمان أو صلاح[١] ، وإنما يبنون كلامهم على أوهام يختلقونها اختلاقا لتضليل الناس، ومن هنا كانوا يتصفون بالإثم والفسق والفجور.

٤ ـ المقصود بقوله تعالى : ﴿ **كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** ﴾[الشعراء:٢٢٢] هم الكهنة والمتنبئة كالعنسي وسطيح ومسيلمة وطليحة وسجاح وغيرهم [٢] ممن ادعى النبوة أو ما يشبه النبوة كحال بعض دعاة الإلحاد في العصر الحديث، إذ «الإفك هو الكذب الصراح المضر المهلك والأفاك المبالغ في الإفك، هذا الذي لا يتورع عن الإفك ولو أضر به قوما أو قبيلة، ولا يتورع عن الكسب الحرام، وليس عملا يسترزق به هذه الطريقة الحرام، فمثل هؤلاء لا يتصلون إلا بالخبيثين والخبيثات، بل أكبر الكهنة والكاهنات فسقة وعواهر»[٣] .

٥ ـ الضمير في قوله تعالى : ﴿ **أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ** ﴾[الشعراء:٢٢٣] يعود على الشياطين، وعلى كل أفاك كثير الإثم، ومنه ينتج أن أكثر أهل الإفك والإثم كاذبون، وربما كان ذلك علامة انتفاء الإيمان على قلوبهم، إذ قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ** ﴾[النحل : ١٠٥] .

لماذا كان أغلب هؤلاء كاذبين ؟ وبمعنى آخر، مالدافع إلى الكذب ؟

إننا حين نتأمل حياة البشرية نجد الكذب منتشراً فيها كثيراً، فقد كذب الناس على الله، فادعوا النبوة، وكذبوا على رسول الله ﷺ فوضعوا الحديث، وكذبوا على عظماء البشرية وقادتها فوضعوا الأخبار، وكذب السياسيون على شعوبهم في صور مختلفة أكبرها كذبة الاشتراكية التي أفسدوا بها عقائد الناس

---

(١) نفسه

(٢) الكشاف ٣ / ١٣٢، الجامع للقرطبي:١ / ٣٩ـ تفسير ابن كثير:٣ / ٥٧٠

(٣) في رحاب القرآن : ٧ / ٤٧٨ـ٤٧٩

وعاداتهم في الأعمال والمعاملات، وكذا الفتاوى التي يصدرها العلماء بما لا يعلمون، وكل ذلك يتطلب وقفة جدية تكشف عن الأسرار التي جعلت نسبة الكذبة في كل مجال من تلك المجالات تشكل الأغلبية .

ويمكن حصر دوافع الكذب في : حب الرياسة، وجمع المال، والزيادة في الجاه، قال أبو حامد الغزالي :« وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم، ثم هو لزيادات المال والجاه ولأمور ليس فواتها محذورا، حتى إن المرأة لتحكي عن زوجها ما تفخر به، وتكذب لأجل مراغمة الضرات وذلك حرام »[1] .

١ـ حب الرياسة : وهو دافع قوي على الكذب، أدى لوضع الحديث، وربما كانت معظم الأحاديث الموضوعة ذات البعد السياسي قد وضعت بدافع حب الرياسة ، « وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله ﷺ ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم »[2] .

ولخطورة الكذب في مستوى الرياسة رأينا رسول الله ﷺ يتشدد في الترهيب منه إذ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ملك كذاب... »[3] ، فالملك الكذاب أو الرئيس الكذاب خطره كخطر العالم الوضاع في شمول ضرره، إذ يضرون بمجتمعات وأمم كاملة، وربما أدى ذلك لسقوط دولة أو زوال مملكة .

٢ ـ البحث عن الجاه : وهذا كثيرا ما يؤدي إلى الكذب، لا سيما الطعن في الرجال لانتقاص قيمتهم في الأوساط الاجتماعية والسياسية والعلمية، وقد عم هذا المرض الإنسانية كلها حتى العلماء منهم، حتى قال الذهبي (٧٤٨ هـ) متعجبا من ذلك : « كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لا سيما إذا لاح

---

(١) الإحياء م/٣ /ج/ ٩ ص ١٥٩٧

(٢) نفسه ١٦٩٤

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ١١٤ وانظر :ابن تيمية : الفتاوى: ١٣/ ١٣٣

لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، وما ينجو منه إلا من عصمه الله، وما علمت أن عصرا من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس»[1] ويرى الغزالي أن بعض من لا يتثبت في رواية الحديث إنما كان «غرضه أن يظهر فضل نفسه، فهو لذلك يستنكف من أن يقول لا أدري»[2].

٣ ـ التشيع للآراء والمذاهب، إذ غالبا ما يؤدي الميل والتشيع ـ كما يقول ابن خلدون ـ إلى أن يرين على عقل العالم ما يمنعه من الانتقاء والتمحيص فيقع في قبول الكذب ونقله[3].

٤ ـ التقرب من أصحاب الجاه والسلطان إذ أن تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك كثيرا ما يستفيض به الأخبار على غير حقيقتها، وقد يقبل ذلك منهم لأن النفوس مولعة بحب الثناء[4].

٥ ـ الطمع: إذ الناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه وثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها[5].

٦ ـ الكذب لظن المصلحة: وهذا قد انسحب حتى على بعض وضاعي الحديث على رسول الله ﷺ، قال الغزالي: «وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في مقابل الأعمال وفي التسديد في المعاصي، وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض»[6]، وقال ابن الصلاح: «الواضعون للحديث أصناف، وأعظمهم ضررا قوم من المنسوبين إلى الزهد وضعوا الحديث احتسابا فيما زعموا فتقبل الناس موضوعاتهم ثقة منهم بهم وركونا إليهم ثم نهضت جهابذة الحديث بكشف عوارها ومحو عارها»[7].

---

(١) الذهبي: ميزان الاعتدال، وانظر المنهج الحديث في علوم الحديث قسم الرواة ص ٩٣ لمحمد أحمد السامي المكتبة العصرية ـ بيروت

(٢) الإحياء: ٣/٩/١٥٩٧

(٣) المقدمة: ١/٥٧-٥٨

(٤) نفسه: ١/٥٨

(٥) نفسه: ١/٥٨

(٦) الإحياء: ٣/٩/١٥٩٨

(٧) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث ص ٥٩ دار الهدى عين مليلة ت الجزائر.

قال القاشاني : «لأن تنزلهم لا يكون إلا عند استعداد قبول النفوس لنزولها بالمناسبة في الخبث والكيد والمكر والغدر والخيانة وسائر الرذائل، لأن الإفك والإثم من لوازم النفوس الكدرة الخبيثة المظلمة السفلية المستمدة من الشياطين بالمناسبة المستدعية لإلقائهم وتنزلهم لحب الجنسية» (١) .

● **المطلب الثاني : اتباع الظن :**

قلنا سابقا إن مواقف الناس من الحق متباينة، وقليل منهم فقط من يلمس له موقف إيجابي . كما سيتبين من بعد، أما أكثرهم فلهم من الحق مواقف سلبية وهذه المواقف السلبية متباينة كذلك، فمنها مواقف عاطفية، ومنها مواقف سلوكية كإخفاء الحقيقة وكتمان الحق، ومنها مواقف عقلية كالكذب واتباع الظن ، وقد بينا دور الكذب وأسبابه ، والآن ننتقل إلى الحديث في مشكلة العمل بالظن.

وسنبين الآن بحول الله حركة العقل في اتباع الظن لإصدار أحكام غير سليمة بخصوص الحق، على مستوى الأفكار المصيرية في الحياة البشرية ، كقضايا العقيدة والسياسة والعمران وما إلى ذلك.

وسيكون منطلقنا هنا من نص صريح الدلالة في ذلك هو قول الله تعالى من سورة يونس، وهي سورة مكية : ﴿ **قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾ [يونس ; ٣٥-٣٦] .

الآيتان تكشفان عن موقف الأكثرية من الحق، في مجال استخدام العقل كآلة للوصول إليه، وتبينان أن الأغلبية من الخلق تبني أحكامها في قضية كبرى

---

(١) القاسمي : تفسير القاسمي محمد ٧ ص ٤٧٨ ـ دار الكتب العلمية بيروت.

هي قضية العقيدة على مجرد الظن ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا ﴾[يونس :٣٦] وتبين الآيتان في الوقت نفسه ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾[يونس :٣٦].

ومعنى ذلك أن مثل هذه المسائل عقدية في الأساس، لا يصلح فيها منهج الشك، فهي مسائل تقوم عليها حياة البشرية في دنياها وأخراها، مما يستوجب اليقين، فاليقين وحده هو المخرج من هذه الأزمة، ومجال اليقين هنا في المنهج النقلي، وإذا اعتُمد الشك منهجا فإنه لا يزيد عن كونه مرحلة في التفكير للوصول إلى الحقيقة، ثم نعتمدها باعتبارها كذلك لننطلق في دراسة الموضوع المراد دراسته، ولذلك جاء السؤال مستفهما ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

[يونس : ٣٥]

والظن المشار إليه هنا هو « ما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب »[١] ، وهو أمر منهي عنه في المعاملات الحسية فضلا عن حركة القلب في الأمور العقدية ومواقفها من الحق، قال القرطبي : « وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكتفى بالظن في العقائد »[٢] .

ولأجل قصور العقل في إدراك الحق كان أبو حامد الغزالي يتساءل :« فبأي ميزان تدرك حقيقة المعرفة ؟ أبميزان الرأي والقياس، وذلك في غاية التعارض والالتباس ولأجله ثار الخلاف بين الناس... أما ميزان الرأي والقياس فحاش لله أن اعتصم به فذلك ميزان الشيطان، ومن زعم من أصحابي أن ذلك ميزان المعرفة فأسأل الله تعالى أن يكفي شره عن الدين فإنه للدين صديق جاهل وهو شر من عدو عاقل »[٣] ، ويمضي الغزالي في حديثه ليبين أن الميزان المعتد به في معرفة الحقائق الغيبية هو الوحي : « فمن تعلم من رسول الله ﷺ ووزن بميزان الله فقد

---

(١) الغزالي : إحياء م٣ ج ٩ /١٦١٧٠

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٨ /٣٤٣

(٣) الغزالي : القسطاس المستقيم ص ٤١

اهتدى، ومن عدل عنها إلى الرأي والقياس فقد ضل وتردى ... واعلم يقينا أن هذا الميزان هو ميزان معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله وملكه وملكوته لتتعلم كيفية الوزن به من أنبيائه كما تعلموا هم من ملائكته، فالله تعالى هو المعلم الأول والثاني جبريل، والثالث الرسول ﷺ، والخلق كلهم يتعلمون من الرسل مالهم طريق في المعرفة سواه»[1].

ويؤكد الغزالي أن ميزان العقيدة روحاني صرف، «وأشد الموازين روحانية ميزان يوم القيامة، إذ به توزن الأعمال وعقائد العباد ومعارفهم، والمعرفة والإيمان لا تعلق لهما بالأجسام، فلذلك كان ميزانه روحانيا صرفا»[2].

لكن هذا لا يعني مطلقا أن الغزالي يستبعد المنهج الحسي والتجريبي والعقلي في جميع المسائل، إنما هو يؤكد ضرورة استبعادها في الحكم على الغيبيات، أما غيرها فيرى ضرورة استعمال كل منهج في موضعه إذ قال: «المادة الصحيحة التي تستعمل في النظر كل أصل معلوم قطعا؛ إما بالحس أو بالتجربة، أو بالتواتر الكامل أو بأول العقل أو بالاستنتاج من هذه الجملة»[3]، غير أن استخدام المحسوس في البحث للتأكد من الحقائق يتطلب الحذر لأن «التعارض في عالم الحس والشهادة كثير جدا»[4].

فالذي ينبغي التعويل عليه هنا هو «كل أصل معلوم قطعا» بغض النظر عن المنهج الموصل إليه، وعليه فإن الرأي والظن يمكن اعتمادهما في المسائل الفقهية إذا كانت أدلتها قطعية، فهنا يصبح الرأي والقياس معياراً منهجياً للإقناع لا سيما العامة إذ «يصلح للأقيسة الفقهية الظنية ولإمالة قلوب العوام إلى صوب الصواب والحق، فإنه لا يمتد فكرهم إلى الاحتمالات البعيدة بل ينجزم اعتقادهم بأسباب ضعيفة»[5].

---

(١) نفسه ٤٣
(٢) نفسه: ٤٧-٤٨
(٣) نفسه ٧٧
(٤) نفسه ٨١
(٥) نفسه ٩٩

وحينما يصر الغزالي على اعتماد «كل أصل معلوم قطعا» في مجال المعرفة فإن ذلك يكون مطابقا تماما لما تبينه الآيات المتعددة بخصوص الظن، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات: ١٢]، هذه الآية التي يعلق عليها الغزالي بقوله: «ما لم تشاهده بعينك، ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق»(١).

ويؤيد هذه الفكرة ابن خلدون إذ يرى أن «صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الانتزاع وبعدها عن المحسوس، فإنها نظر في المعقولات الثواني، ولعل المراد فيها ما يمانع تلك الأحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني، وأما النظر في المعقولات الأول، وهي التي تجريدها قريب، فليس كذلك لأنها خيالية، وصور المحسوسات حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه»(٢).

ويضرب لذلك مثالا في المجال الحسي ليبين وقوع الخطأ في القياس الذي لا يبني على «أصل معلوم قطعا» فيقول: «ولا يقاس شيء من أحوال العمران على الآخر، إذ كما اشتبها في أمر واحد، فلعلهما اختلفا في أمور، فتكون العلماء لأجل ما تعودوه من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض إذا نظروا في السياسة أفرغوا ذلك في قالب أنظارهم ونوع استدلالهم فيقعون في الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم»(٣).

ويلتقي ابن خلدون مع الغزالي في كون منهج العامة ـ حين يصدر عن الفطرة السليمة في الوصول إلى الحقائق ـ أوثق من منهج أهل القياس؛ لأن «العامي السليم الطبع المتوسط الكيس، لقصور فكره عن ذلك وعدم اعتياده إياه يقتصر لكل مادة على حكمها، وفي كل صنف من الأحوال والأشخاص على ما اختص به، ولا يعدي الحكم بقياس ولا تعميم، ولا يفارق في أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه»(٤).

---

(١) الإحياء ٣/٩/١٦١٧ (٢) ابن خلدون: المقدمة: ٢/١٠٤٧

(٣) نفسه ١٠٤٦ (٤) نفسه

والقرآن الكريم يضرب لنا مثالاً حيًا بعبد عوَّل على الظن في منهجه فانتهى إلى نتيجة سيئة للغاية، فقال: ﴿ **وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا** ﴾[الكهف : ٣٥-٣٦] فهذا المخدوع بنى وهمه على الظن في أمر خطير لا يفيد معه إلا اليقين كما يبين صريح الآية، فخسر خسرانًا مبينًا.

ومن كل ذلك يتبين أنه لم يبق لمنهج الظن سوى طريق واحد هو امتحان الافتراضات التي يضعها العقل ليتبين موضوع بحثه فيميز الحق من الباطل، وهذا الذي ترشد إليه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾[الحجرات ٦] .

الآن وقد تبين لنا أن منهج الظن لا يغني في إثبات الحقيقة يمكن أن نتساءل: لماذا كان ذلك هو طريق الأغلبية ﴿ **وما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا** ﴾ [يونس:٣٦]

إن الآية بهذه الصيغة تحصر الاتباعية في مجال الظن والشك، حتى قال بعضهم لفظ الأكثر هنا يفيد الكل، والحق أن ذلك من المبالغة، إذ الذين يتبعون الظن هم الأكثر، وهذه الأكثرية تتجلى في عبادة العرب قبل الإسلام، كما تتجلى في عقيدة النصارى واليهود، ومن لف لفهم من أهل التثليث، كما تتجلى في عبادات أهل الشرك في الهند وغيرها من عبدة الأوثان والبقر، فكل هؤلاء لا برهان لهم على ما يعبدون، في حين أن العبادة الحقة تقوم على البرهان: ﴿ **وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ** ﴾ [المؤمنون: ١١٧] ومع ذلك فهم متمسكون بهذه العقائد المختلفة تمسكا غريبا، يحسبهم الجاهل لذلك أنهم على حق، ولكن عند النظر في الأدلة والبراهين التي يقدمونها على عباداتهم يتجلى السراب الذي يبنون عليه كل عباداتهم.

ولا شك أن لهذا الضلال الذي وقعت فيه البشرية، بسبب اتباع الظن،

أسبابًا كثيرة، منها فساد المنطق الذي يعتمدون، ومنها التقليد الذي من شأن صاحبه ألا يعمل النظر، إذ المقلد لا يصغي كما يقول الغزالي، ومنها اتباع الهدى والحرص على السيادة والرياسة كما رأينا في العمل بالكذب، ومنها الجهل، ومنها عدم امتحان أنفسهم للتحقيق مما يصنعون، وقد ذكر المفسرون كل هذه الأسباب لكنها جاءت متفرقة.

١ ـ فساد منطقهم: وهو أمر ينشأ عن فساد الدوافع، إذ المنطق آلة عقلية حيادية في الأساس، لكن حركته الفكرية في الموضوعات تتبع تلك الدوافع الخفية التي لها من القوة مالها، مع تدعيم الشيطان لها تدعيما مستمرا، لا يخفت إلا بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[فصلت:٣٦].

وقد أشار لهذا السبب غير واحد من المفسرين، ولعل أوضحهم ابن عطية إذ قال: «قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا** ﴾[يونس:٣٦] إخبار عن فساد طرائقهم وضعف نظرهم وأنه ظن، ثم بين منزلة الظن من المعارف وبعده عن الحق، والظن في هذه الآية على بابه في أنه معتقد أحد جائزين، لكن ثم ميل إلى أحدهما دون حجة تبطل الآخر»(١).

فالظن بهذا المعنى ميل إلى أحد شيئين دون حجة تبطل طرفا وتثبت آخر، فهو إذن اتباع للدوافع النفسية التي توجه العقل ليحكِّم تبعا لذلك الهوى الذي أملته تلك الدوافع، كفساد منطق أهل التثليث، وفساد منطق أهل الشرك قديما وحديثًا، وفساد منطق الملحدين.

ولكي يستقيم منطقهم لا بد من صفاء نفوسهم إذ أن صفاءها مما يورث الذكاء ويعمقه كما يقول ابن نبي.

٢ ـ الجهل: وهو كثيرا ما يؤدي إلى الأحكام الظنية، التي ليس للإنسان

---

(١) ابن عطية المحرر الوجيز ج٧ ص ١٤٨

عليها أي برهان، لافتقاره إلى المعرفة الكافية لإصدار الأحكام الصحيحة على قضية معينة، وقد أصاب النيسابوري عندما علل مسألة اتباع الظن عند الأكثرية بقوله : « يتبعون ظنا لأنهم لم يأتهم بذلك كتاب ولا رسول »[1] ، بمعنى أنهم يجهلون الحقائق المتعلقة بموضوع غيبي كالألوهية والربوبية والنبوة والبعث فيبنون أحكامهم على الظن، وهو لا يغني من الحق شيئا في مثل هذه المسائل، وإنما مجاله الاحتمالات الحسية والتاريخية التي يمكن التحقق منها بالدراسة والتمحيص والتجريب والامتحان، فهم كما يقول المهايمي : قد أصيبوا بشك « حصل لهم من رؤية آثار ظنوا أنها منسوبة إلى شركائهم مع أنها لله »[2] ، أي أن هذا الظن توهُّمٌ نشأ عن قلة علم بربط العلاقات بين الأسباب والمسببات والقوة القادرة على فعل ذلك، وبهذا « يكون الحكم على الأكثر للإشارة إلى أنه يقل فيهم العلم »[3] .

٣ ـ قلة التحقيق : ميزة الظن الأساسية عند أصحاب المناهج هي الدعوة إلى الحرص على تحقيق الأشياء والأفكار قبل إصدار الأحكام عليها، إذ الحكم على الشيء منبثق عن تصوره وفهمه؛ لأن اتباع الظن بغير برهان ولا دليل يتسبب في ميل العقل والقلب إلى الشيء نتيجة لتأثير من التأثيرات المختلفة، وذلك هو المذموم من الظنون.

وعلى هذه القاعدة بالضبط بنى قطب تفسيره للآية ﴿ **وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا** ﴾ [يونس :٣٦] فقال « لا يحققون هذا الظن ولا يمتحنونه عملاً ولا عقلاً، وهم يظنون أن آباءهم ما كانوا ليعبدوا هذه الأصنام لو لم يكن فيها ما يستحق العبادة، ولا يمتحنون هم هذه الخرافة، ولا يطلقون عقولهم من إسار التقليد الظني، وهم يظنون أن الله لا يوحي إلى رجل منهم، ولا يحققون لماذا يمتنع هذا

---

(١) النيسا بوري : الوسيط في تفسير القرآن المجيد ٢ /١٤٧

(٢) المها يمي : تفسير تيسير المنان ج١ /٣٢٧ علم الكتب ـ بيروت ـ

(٣) رشيد رضا : تفسير المنار ج ١١ /٣٦٤

على الله، وهم يظنون أن القرآن من عمل محمد ﷺ ولا يحققون إن كان محمد – وهو بشر – قادرا على تأليف هذا القرآن بينما هم لا يقدرون وهم بشر مثله »[1].

٤ ـ التقليد : وهو مرض عضال لم ينج منه إلا الذين تمردوا عليه تمرداً إيجابيا، وذلك لأن المقلد يلغي عقله حتى في القضايا المصيرية الكبرى الأخروية والدنيوية، قال ابن الجوزي : « وإني رأيت كثيرا من الناس لا يعملون على دليل، بل كيف اتفق، وربما كان دليلهم العادات وهذا أقبح شيء يكون ثم رأيت خلقا كثيرا لا يتبعون الدليل بطريق إثباته كاليهود والنصارى فإنهم يقلدون الآباء ولا ينظرون فيما جاء من الشرائع هل صحيح أم لا، وكذلك يثبتون الإله ولا يعرفون ما يجوز عليه وما لا يجوز، فينسبون إليه الولد ويمنعون جواز تغييره ما شرع، وهؤلاء لم ينظروا حق النظر لا في إثبات الصانع وما يجوز عليه، ولا في الدليل على صحة النبوات فتقع أعمالهم ضائعة »[2] .

ولقد صدق الغزالي حين قال:« إن المقلد لا يصغي، والبليد وإن أصغى فلا يفهم »[3]، إذ كيف يصغي وقد رسم لقلبه ونفسه رسما لا يبرحانه أبداً حتى ﴿ **يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ﴾[الأعراف : ٤٠] على حد التعبير القرآني،إن التقليد جمود على الإرث الثقافي باعتباره مسلمة يقينية، وهو غالبًا ما لا يكون كذلك .

فمن أصيب به من أمة أو فرد فَقَدَ القدرةَ على إعمال العقل مما يؤدي إلى الاعتقاد القائم على الظن، قال البقاعي : « (إلا ظنا) تنبيه على أنهم هم مقلدون وتابعون للأهواء »[4]،ويرى رشيد رضا أنهم يفعلون ذلك : « تقليداً لآبائهم

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ١١ / ١٧٨٤

(٢) عبد الرحمن ابن الجوزي : صيد الخاطر ـ مكتبة رحاب الجزائر ـ

(٣) القسطاس المستقيم :٨٥ (٤) نظم الدرر : ٣ / ٤٤٢

وتعظيما لشأنهم أن يكونوا على باطل في اعتقادهم وضلال في أعمالهم»[1]. وهكذا يتبين لنا أن التقليد سببه بناء الفكر على مجرد الظن بعيدا عن البرهان والدليل.

وخلاصة القول: إن اتباع الظن مذموم في المنهج الإسلامي، ما لم يبن على تحر وامتحان على شاكلة ما رأينا في منهج الشك العلمي الذي يبنى على الفرضيات ثم يعمل على التجريب والاختبار حتى يصل إلى الحق فيتبعه عندئذ ليصدر حكما علمياً، وهذا مجاله الحسيات، أما اتباع الظن تقليداً للآباء تعظيماً لشأنهم، أو جهلاً بالمعطيات العلمية المؤدية إلى الحكم العلمي الصحيح، أو لقلة الخبرة بأساليب الامتحان والاختبار للفرضيات، أو لفساد في المنطق لسبب من الأسباب فكل ذلك لا يغني من الحق شيئا في مجال المحسوسات فضلا عن مجال الغيبيات التي ليس للإنسان طريق لإدراكها غير الهداية الربانية عن طريق الوحي.

وإنما تسامح المنهج الإسلامي في استخدام الظن بعض التسامح في الشريعة لأنها أحكام تتعلق بالحس الذي يمكن للعقل أن ينشط فيه متى كان صاحبه سوي النفس زكي القلب مأمونا من اتباع الهوى، قال البقاعي: «ولما كان الظن لا ينكر استعماله في الشرائع نبه على أن محله إنما هو حيث لا يوجد نص على المقصود فيقاس حينئذ على النصوص بطريقه»[2]، وقال ابن عطية «وأما في طريق الأحكام التي تعبد الناس بظواهرها فيغني الظن عن تلك الحقائق ويصرف من طريق إلى طريق»[3].

وعلى أن الظن طريق في بحث المحسوسات للوصول إلى الحقيقة عن طريق وضع الفروض فإننا نرى قول الله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[فصلت ٥٣] مما يعزز هذه الفكرة، لأن رؤية الآيات

(١) تفسير المنار: ١١/٣٦٤
(٢) نظم الدرر: ٣/٤٤٢
(٣) المحرر الوجيز: ٧/١٤٨

بهذا الشكل يتطلب البحث والتجريب الحسي، قال ابن كثير بصدد تفسير قول الله تعالى: ﴿ **وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا** ﴾[الكهف: ٣٥ - ٣٦] «لما رأى فيها من الزرع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله وضعف يقينه بالله وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها وكفره بالآخرة، ولهذا قال: ﴿ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً** ﴾[الكهف: ٣٦] أي كائنة »[١].

ولما كان الظن لا يغني من الحق شيئا وكان السبيل إلى طمأنة النفس إزاء تلك المعارف هو التحقيق والتمحيص والامتحان فقد نشأ لهذا الهدف علم التجريح والتعديل فكان «التعديل والتجريح هو المعتبر في صحة الأخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف إنشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها وسبيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط »[٢].

● المبحث الرابع : الجدل ومشكلة الحق :

الجدل أسلوب من أساليب كشف الحقيقة متى استعمل في موضعه، وهو بدون شك يختلف عن الحوار، لأن الحوار يقترن بالاتزان النفسي وحب كشف الحقيقة لاتباعها، بينما الجدال في الغالب يتميز بالتعصب والغلظة وفي لسان العرب الجدل الشدة ومنه شدة الخصومة وفي الحديث «ما أوتي قوم الجدل إلا ضلوا»،والمراد به في الحديث الجدل على الباطل وطلب المغالبة به لاإظهار الحق[٣] لأن المجادل يبني كلامه على حكم مسبق، يريد أن يفرضه على الخصم، ولهذا

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم : ٣/ ٨٣

(٢) ابن خلدون المقدمة :١/ ٦١

(٣) لسان العرب : مادة جدل: ١١/ ١٠٤-١٠٥